قراءات ومراجعات

النواة التوحيدية للنظام المعرفي الإسلامي عند إسماعيل الفاروقي

قراءة تحليلية في كتابه "التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة"*

السيد عمر**

مقدمة:

لباب هذه المقاربة المعرفية هو: إطلالة خاطفة على خارطة النواة التوحيدية للنظام المعرفي الإسلامي كما بينها العلامة الراحل إسماعيل راجي الفاروقي. ويمكن القول بأنَّ جوهر مشروعه الفكري متضمن في كتابه الذي صدر بالإنجليزية، ومنَّ الله تعالى عليّ بتعريبه، تحت عنوان: "التوحيد: مضامينه في الفكر والحياة"، وما مؤلفاته الأخرى إلا روافد شارحة له.

ولا تعدو هذه الدراسة أن تكون مقاربة أولية غايتها توسيع دائرة الوعي بمضمون هذا المرجع المعرفي الثقيل الوزن. ونحن فيها نلقي الضوء منه على المعالم الكبرى لتلك النواة التوحيدية، مع التنبيه على عقدها منه، ومن روافدها بمؤلفات الفاروقي الأخرى. وهذا المرجع في تقديري نسيج وحده، جدير بأن تحوله الجماعة العلمية الإسلامية من مجرد ناظم لفكر مؤلفه، إلى دليل عمل إرشادي ناظم لجدول أعمالها البحثي الآني والمستقبلي، على صعيدي: وصف حالة الأمة، وتحديد وصفة تعافيها. ذلك أنّ كتاب "التوحيد" يحفر في أسئلة معرفية كبرى، في طليعتها: ما علَّة تحوّل أمتنا باطّراد على مدى القرون الخمسة الأخيرة من وضعية الأمة الشاهدة، صاحبة الريادة في العطاء الحضاري على المستوى الإنساني العالمي، إلى وضعية الأمة المتكالب عليها، السائرة على خط التراجع في إسهامها

* Al-Faruqi, Ismail Raji. *Al-Tawhid: its Implications for thought and life*. Herndon, Va: IIIT, Third Edition 1416/1995.

** دكتوراه الفلسفة في العلوم السياسية من جامعة القاهرة عام ١٩٩١م، رئيس قسم العلوم السياسية– جامعة العلوم التطبيقية/ مملكة البحرين. البريد الإلكتروني: dr_sayedomer@yahoo.Com

تم تسلّم القراءة بتاريخ ٢٠١١/١٢/١٠م، وقُبلت للنشر بتاريخ ٢٠١٢/١١/١م.

الحضاري؟ وما سرُّ إخفاق مساع كثيرة بذلتها الأمة من أجل استعادة عافيتها؟ وما المخرج من تلك العلة في ضوء الوقوف على ذلك السر؟ وزبدة الإجابة أنَّ موقف الأمة من التوحيد الخالص هو المتغير المستقل، وما عداه هو المتغير التابع على الدوام، بالنسبة لحالتها ولمصير مساعي الإصلاح فيها، في مجالات الحياة والفكر كافة، وأن إرادة السبق الحضاري مرهونة بتعميق الإيمان.

والفرضية المعرفية الأمُّ التي يسبر الفاروقي أغوارَها في إجابته المؤسسية البديعة على تلك الأسئلة هي: أنّ إخفاق مساعي الإصلاح في الأمة يردّ إلى ابتلائها بآفة ماثلة في تعلية البعد المادي والمعايير المستعارة، على البعد الروحي، والغفلة عن أنَّ شرط التعافي وسبيله الوحيد هو استعادة قابلية تغيير ما بنفسها باتجاه التوحيد الخالص، بشقيه: التخلية المحررة لعقلها ولحياتها من دواعي الفساد والخلل كافة، والتحلية المؤسسة لاستعادة رسالتها في الصلاح والإصلاح.[١]

ويقيم الفاروقي عبر اللجوء المباشر المكثف للقرآن الكريم، والتحليل المقارن بين النموذج المعرفي التوحيدي الإسلامي والنماذج المعرفية المقابلة، واستقراء الماضي، وتحليل الحاضر، واستشراف المستقبل، الحجة الدامغة على أنَّ التوحيد هو النواة الوحيدة الصالحة لأن تكون ناظماً لخلافة الإنسان ولحمله الأمانة في الأرض. ويبرهن على أنَّ تلك النواة هي: جوهر الخبرة الدينية، وهي لباب الإسلام، وهي مبدأ كل من: الحضارة، والتاريخ، والمعرفة، والغيب، والأخلاق، والنظام الاجتماعي، والأمة، والأسرة، والنظام السياسي، والنظام الاقتصادي، والنظام العالمي، والنظام الجمالي.

ولن تتعدى حدود هذه الدراسة تقديم وصف بالغ الإيجاز لخيوط النسيج التوحيدي الثلاثة عشرة سالفة الذكر، كما نسجها منوال العلامة الفاروقي، ثم نقفِّي عليها بخاتمة تؤكد أن تأليف الكتاب الذي قمنا بمرجعته إنما هو خطوة عملية في جهود الإصلاح التربوي والتعليمي؛ إذ كان الهدف من الكتاب تقديم بديل للكتابات والممارسات القائمة

[١] الفاروقي، إسماعيل راجي. **التوحيد: مضامينه في الفكر والحياة**، ترجمة: السيد عمر، قيد النشر بالمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص٣-٤.

في تدريس العقيدة الإسلامية بصورة لا تقيم بنياناً للفكر الإسلامي ولا للحياة الإسلامية.

أولاً: التوحيد بوصفه جوهر الخبرة الدينية

تتمثل خلاصة الخبرة الدينية الإسلامية في أمرين: التأكيد على المفارقة المطلقة بين الخالق والمخلوق، واستحضار البشرية الدائم للمعيّة الإلهية، بما أنَّ الإنسان كائن عابد بالضرورة، ومنتهى كل وسائله وغاياته هو طاعة الإرادة الإلهية التكليفية، المبنية على اختياره الحر المسؤول.

وتلخص العبارة الدالة على الركن الأول من الإسلام (لا إله إلا الله)، محتوى الكون كله، والإسلام كله. فهي جماع السلام الإسلامي التوحيدي الجامع، الذي به يزهق لاهوت الخلاص، ويتأسس ناموس توجيه حركة التاريخ باتجاه الفلاح الحر المسؤول، في كونٍ محكم له غاية، على يد أُمّة مفتوحة متناغمة، تجمعها بكل ما في الوجود من مخلوقات علاقة تسبيح مشترك، والتزام بمنهج رباني منزل، هو الميزان الذي ينبغي على الإنسان أن يعاير به علاقته بربه وببني جنسه وبغيره من المخلوقات. وكل ما عداه هو في موضع الموزون به. وإذا التزم الإنسان بكل تكويناته وكياناته، بالسعي إلى إعادة تشكيل كل ما هو مسخر له وفق أمر الله التكليفي قدر استطاعته، فإنَّ آفاق فلاحٍ لا متناهٍ تنفتح أمامه. والعكس صحيح.

ويجلّي الفاروقي تلك الخبرة الدينية على مستويين: تجاوز ما توصّل إليه الفلاسفة، بما فيهم الفلاسفة المسلمون، بخصوص نظام الكون على نحو يسدّ منافذ المغالاة في علاقة السببية، وبما يجمع بين إطلاقية المشيئة الإلهية وفاعلية السنن الإلهية، ويحرر البشرية من المفاهيم المشوشة للعلاقة بين الخالق والمخلوق، ويعيد إلى ذاكرتها مجدداً المبادئ الخمسة للرؤية الحنيفية للعالَم، وهي: الثنائية القائمة على المفارقة المطلقة بين نظام الخالق ونظام المخلوقات، والتصورية أو الإدراكية المؤسسة على قابليات الإنسان الممكِّنة له من فهم ما يستطيع به حمل أمانة التكليف بالوحي والعقل وملاحظة السنن الكونية الثابتة، وغائية

الكون، والمسؤولية والمحاسبة والقدرة الإنسانية على الفعل الأخلاقي في طبيعة مسخرة قابلة لإعادة التشكيل.

وهذه الخبرة هي الأصل الثابت، وما يخالفها هو مجرد انحراف عارض. وهي وحدها طوق النجاة للبشرية، من أنساق معرفية مغايرة توقعها في الفتنة بنفسها تارة، وبالطبيعة تارة أخرى، وتشوش العلاقة بين الأسباب بوصفها تابعاً، والإرادة الإلهية المطلقة بوصفها متبوعاً.

ولا يتمثل الإسهام الرئيس للخبرة الدينية الإسلامية -على ضوء هذا الطرح المعرفي- في بناء وعي الإنسان بوجود ربٍّ له وللكون، بل في تطهير وعيه من أدران الشرك الصريح والخفي، ومن المفاهيم الزائغة مثل: الأب، والابن، والمخلِّص، وأسطورة قابلية المسافة بين الخالق والمخلوق للتجسير.

ويقوم العمران الإنساني في الأرض وفق تلك الخبرة على دعامتين: معيارية إلهية المصدر مفارقة بالمطلق، وذات إنسانية فردية وجماعية منظومة بتلك المعيارية باختيار حرٍّ مسؤول. والانحراف عن تلك المعيارية أمر وارد، حال اتباع الهوى والشيطان. لكنَّ الاستقامة على الطريقة في حمل الأمانة ممكن هو الآخر حال الاعتصام بحبل الله.

وجوهر الأمانة التي حملها الإنسان هو الحفاظ على فطرته السوية التي فطره الله عليها، واستعادتها، وإغنائها، بنظم حريته بالمنهج الرباني المنَزَّل. وما الحياة كلها إلا ساحةٌ لإنجاز أخلاقي منقطع النظير، على قدر التزام تلك المعيارية الرأسية المفارقة بحفظ الأمانة، أو لفساد وبوار على قدر الزيغ عنها وتضييعها. ورسالة الإنسان في هذه الحياة هي: مَلْءُ الوجود بقيم الفعل الأخلاقي الحر المسؤول، التي ينفرد بها، المتجاوزة للقيم الأولية الطبيعية المحكومة بسنن كونية لا دخل له فيها، وللقيم الوسائلية النفعية التي يشاطره فيها غيره من المخلوقات، والتي لا يتجاوز مردودها النفع في هذه الحياة الدنيا. والإنسان مخلوق مؤهل للقيام بتلك الوظيفة بفطرته، وبحواسه وبالوحي المنزل. والحياة الدنيا ليست واقعاً يسعى الإنسان إلى الخلاص منه، بل هي ساحة يحقق فيها فلاحه بفعله الأخلاقي، وليس بفعل غيره.[٢]

[٢] حول جوهر تلك الخبرة الدينية وعمقها ومسيرة تشوهها، انظر:

ثانياً: التوحيد بوصفه جوهر الحضارة

التوحيد هو نواة الحضارة الإنسانية الحقة. وتختلف مقومات الوجود شكلاً ومضموناً حين يكون ناظمها هو التوحيد، عنها حين يكون لها أي ناظم غيره. وهو وحده طوق تحرير البشرية من جريرة التأويل اليهودي لمفهوم (الإله) على نحو حرف الكَلِم عن مواضعه، وأفرخ اختلاق المسيحيين لمقولة: الإنسان الإله. وينقد الفاروقي، بل ينقض، ذلك التأويل، وذاك الإسقاط النابع منه، مبينا أنَّ الإنسان مفطور على التوحيد، وأن الشرك بكل صوره داء عارض، ونتاج لفساد نظم التربية، وللتأويل الخاطئ عبر التاريخ.

ومحور الإضاءة المعرفية التي يقدمها الفاروقي هنا أنَّ التوحيد هو الجوهر المعرفي للحضارة، وهو خميرة التأثير عليها شكلاً ومضموناً. ويدلف من ذلك إلى بيان خبرة الزلل اليهودي المسيحي في تصور الذات الإلهية، ويسلط الضوء على اجتناب الخبرة الإسلامية له بإبداع الفنون الإسلامية لشواهد النفي المطلق لأيّة شُبهَة شَبَهٍ بين الذات الإلهية والمخلوقات، وحفظ لغة القرآن الكريم، وتعرية الآلهة الموهومة، وإخراج العالم من حالة الجمود والشخصنة والتشيؤ التي كان قد تردّى فيها، باستعادة الوعي بكون الخليقة مادة ينبغي تحقيق الإرادة الإلهية فيها، وبأنه لا يوجد في الحياة مأزق لا يستطيع الإنسان أن يخلص نفسه منه بنفسه، وبأن الخير الواجب التحقيق هو: الإرادة الإلهية، التي هي واحدة بالنسبة للمخلوقات كافة.

ومن هذا الجذر التأسيسي يجلي الفاروقي الكيفية التي أصيبت بها أُمّتنا بغبار الشِّرك من جهة، والسِّر في تفوق جهاز مناعتها الحضارية ضده بالقياس بغيرها من الأمم، وفي قابليتها للتخلص منه من جهة أخرى. وباب إصابتها بالغبار هو التشبُّه بثقافة أمم مشوبة به دخلت في الإسلام أفواجاً. وسرُّ قوة المناعة لديها هو الحفاظ على اللغة العربية، وعلى كتابة القرآن بها، وعدّ كل ما يكتب عنه بغيرها شروحاً له فحسب. فحفظ عربية القرآن كان ولا يزال، هو أساس مناعة تصور أُمّتنا لرسالة الإنسان على

- المرجع السابق، ص٣٤-٥٤.

- الفاروقي، إسماعيل راجي، الفاروقي، لويس لمياء. **أطلس الحضارة الإسلامية**، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، مراجعة: رياض نور الله، الرياض: مكتبة العبيكان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦م، ص٩٤-١٠٩.

الأرض، ولشبكة علاقاته بكل ما بالكون، وبه نجت أُمّتنا من الفوضى المفاهيمية التي وقعت فيها أمم أخرى من جراء كتابة الوحي المنزَّل عليها، بغير اللغة التي تنزَّل بها.

والكون وفق هذه الرؤية التوحيدية مثالٌ للكمال، لا موضع لوصمه بالخطيئة والمادية، ولا للسعي لمخلِّص خارجي للإنسان منه. والإنسان محكوم شأن غيره من المخلوقات بالمشيئة التكوينية. إلا إنه يفترق عن غيره من المخلوقات في اختصاصه بوظيفة كونية أخلاقية حرة مسؤولة.[٣]

ثالثاً: التوحيد مبدأ التاريخ

بؤرة هذا الرافد من روافد الرؤية التوحيدية هي الجمع بين أخلاقية النِّية وأخلاقية العمل، ومسؤولية الإنسان عن صنع التاريخ في هذه الحياة الدنيا بالسعي إلى الفلاح المجسد للمطلق قدر استطاعته، بحيث تصير الآخرة بمثابة ذروة أخلاقية، المصيرُ فيها ترجمةٌ لدرجةِ حملهِ أمانةَ خلافته في الأرض.

وتتجاوز تلك الصورة للتاريخ، المادية المظهرية اليهودية، والمسيحية الروحية الغنوصية التي تستبعد قيام حياة أخلاقية حقة على هذه الأرض؛ فالتاريخ يقوم على إرادة إنسانية أخلاقية حرة ثلاثية الأركان: إجماع النية، والقدرة، والعمل.

وهذا المنظور الإسلامي للتاريخ مغاير تماماً للمنظورين المسيحي واليهودي؛ لاختلاف مصدره عن مصدريهما. فبينما يتلقى المسلمون تصورهم للحياة الدنيا وما بعدها من القرآن الكريم، يتلقاها أهل الكتاب من تأويلاتهم للتوراة والإنجيل. ويمثّل التاريخ في المنظورين اليهودي والمسيحي علاقة بين مملكة دنيوية خاصة بالهوى والجسد والشيطان والنفس، ومملكة إلهية. أما في المنظور الإسلامي فيتعلق التاريخ بمملكة واحدة على

[٣] انظر في التفصيلات في:
- الفاروقي، **التوحيد: مضامينه في الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص٥٥-٧٨. وحول جوهر الحضارة الإسلامية والتوحيد بوصفة رؤية للعالم، راجع:
- الفاروقي، إسماعيل، الفاروقي، لويس، **أطلس الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص١٣١-١٥٥.

الأرض، تمثل دار عمل، ومسرحاً لتجسيد الإرادة الإلهية فيها بزمانها ومكانها بفعل إنساني حرٍّ مسؤول.

ولا موضع في هذا التصور الإسلامي للرهبانية، ولا لتمركز الإنسان الأخلاقي حول نفسه، ولا وزن لقيم شخصية، ما لم تكن سبباً في ترقية نوعية الحياة الإنسانية للغير، بدليل الانتقال الفوري من لحظة (اقرأ) إلى لحظة (البلاغ المبين)، والهدي النبوي الناهي عن الفعل الأخلاقي المنعزل عن المجتمع.[٤]

رابعاً: التوحيد مبدأ المعرفة

ينقض الفاروقي في هذا المقام فِريَة الزعم بأنَّ كل الفكر الديني قائم على غير برهان. ويعرّي ما لحق بمفهومي: العقيدة والإيمان من تشويه في الخبرة المسيحية الحديثة. فالتوحيد مبدأ منهجي، يحرر البشرية من العبث الغربي بمفهومي: العقيدة والإيمان. ولا موضع في التوحيد، بوصفه مبدأ المعرفة، للنزعة الشكوكية التي روّجت العلمانية التجريبية الوضعية لها، ولا للإيمان غير المؤسس على دليل كالذي دعت إليه الكنيسة. فلقد حوّل الغرب مفهوم الإيمان المرادف لليقين، إلى معنى: الاشتباه والشك والاحتمال، والقطيعة بين مفهوم العقل ومفهوم الوحي المنزَّل، وحصر العقل في تأويلات الكنيسة، وفيما هو تجريبي ملموس.

وعلى العكس من ذلك، فإنَّ الإيمان الإسلامي مقولة معرفية مبنية على بيّنة عقلانية، تقوم على حقيقة يصل بها العقل إلى اليقين، وجوهرها هو: وحدة الحق والحقيقة والخالق، ومرتكزها هو: رفض كل ما لا يتمشى مع الحقيقة، ونفى التناقض النهائى، والانفتاح الدائم على دليل المخالفة، وعلى الدليل الجديد. ومن أهم ما يقرره الفاروقي في هذا المقام أنه لا تناقض بين الوحي والعقل السوي المنفتح على دليل المخالفة، وعلى الدليل الجديد، المتجنب للوقوف عند ظاهر التناقض.

---

[٤] انظر في التفصيلات:

– الفاروقي، **التوحيد: مضامينه في الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص٧٩-٨٤.

ويحمي هذا المبدأ العقل الإنساني من التكلُّس، ومن الغرور والتعصب النسبيين، ويؤهله للوعي بضرورة التسامح المعرفي بإحسان الظن بالله بوصفه المصدر الأسمى للمعرفة الكاملة الشاملة، وللخير في الوجود، وبالحاجة إلى التفاؤل المعرفي المؤسس على أنَّ أصل الأمور هو الإباحة والخيرية، عدا المنصوص حصراً على تحريمه منها.

ومن بين مقومات مبدأ التفاؤل المعرفي: اليُسْر الذي يقبل الإنسان معه الدليل الحاضر إلى أن يثبت زيفه، والوعي بضرورة التخلص من الإصر والأغلال، والتسليم بوحدة دين الله تعالى، وبوجوب الدراسة المقارنة للأديان، بغية التمييز بين ما هو أصيل فيها، وما هو دخيل عليها ناجم من سوء التأويل.[٥]

خامسا: التوحيد مبدأ الغيب

يمهد الفاروقي لتأسيس حقيقة كون التوحيد مبدأ للغيب بتفكيك المنظورين الهندوسي والمسيحي للغيب، مبيناً سلبيتهما، في مقابل الرؤية الإسلامية للطبيعة بوصفها كينونة متصفة بالنظام والهدفية والخيرية. ثم يبين أنَّ العلم لا يتطلب نفي فعل الله في الطبيعة، بل التخلص من الخرافات، وأن سنن الله الكونية هي أساس العلوم الطبيعية. وما العلم إلا مسعى لاكتشافها.

ويثني الفاروقي على تخليص الغربيين العلم الطبيعي من الخرافة، إلا إنه يستدرك عليهم بأن إنجاز تلك المهمة على الوجه الصحيح كان يقتضي ربط العلم بالسنن الكونية، وهذه المهمة لا تتم إلا بالتوحيد، الذي هو شرط العلم الصحيح؛ لكونه يجمع كل خيوط السببية، ويعود بها إلى مصدر واحد، وليس إلى حتمية مزعومة.

---

[٥] انظر في التفصيلات: المرجع السابق، ص٨٦-١٠١. وللمزيد من التفصيلات حول أساسيات بناء المعرفة على التوحيد، انظر:

- الفاروقي، إسماعيل، والفاروقي، لويس لمياء، **أطلس الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٢٣٧-٢٤٢.
- الفاروقي، إسماعيل راجي. **أسلمة المعرفة: المبادئ العامة وخطة العمل**، ترجمة: عبد الوارث سعيد، الكويت: دار البحوث العلمية، ١٩٨٢م، ص١-٨.
- الفاروقي، إسماعيل راجي. **صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية**، رسائل إسلامية المعرفة ٥، الرياض: الدار العالمية للكتاب.

وفي غيبة مراعاة هذا الشرط عانت قطاعات كبيرة من البشرية، ولا تزال تعاني، من رؤى تصور هذه الحياة الدنيا على أنها ساحة سقوط للإنسانية، تحتاج إلى مخلص لها منها، ومن فِرية الخطيئة الأبدية، ومن أسطورة مملكة الشيطان، التي لم يتخلص العقل الغربي المسيحي منها، رغم مرور قرون على تأثّره بالفكر الإسلامي، وبفكر التنوير.

وفي المقابل، تأتي الرؤية التوحيدية لطيبات الحياة الدنيا وإيجابيتها، ولهدفيتها وخيريتها، وارتباطها بنظام مُحْكَم من السنن الكونية والمشيئة الربانية، والفعل الإنساني الأخلاقي الحر المسؤول. فمع أنَّ الأسباب فاعلة بحكم أنَّ سنن الله تعالى لا تتبدل ولا تتغير، فإنها محكومة في نهاية المطاف بإرادة الله المطلقة، التي لا مُعقِّب عليها. وكل ما في الوجود هو من خلق الله، ومصيره إليه. والإنسان كائن عابد حر مسؤول مستطيع بفطرته وقابلياته وبالوحي المنزل، وبتلمسه لأسباب الاستطاعة، في كون قابل لتلقي فعله فيه. وبتقرير فاعلية الأسباب والسنن المبثوثة في الكون مقرونة بكونها منظومة في نهاية المطاف بالمشيئة الإلهية المطلقة، ينفتح الباب أمام تحرير العقل الإنساني من الشعوذة والسحر والخرافة، ويتم تجفيف منابع الدجل والشرك، وتتاح الفرصة لتحرير العقول، ولبناء علوم محررة من الأساطير.

ومن الإضاءات المعرفية المهمة التي يقدمها الفاروقي على هذا الرافد المعرفي التوحيدي، أنَّ بناء العلم لا يحتاج إلى نفي فعل الله تعالى المستمر في الكون، بل إلى تخليص العلم من أساطير الأرواح والأشباح الوهمية، وذلك بمبدأ التوحيد الذي يجمع كل خيوط السببية ويضعها في يد الله تعالى وحده، ويستأصل ظن وجودها في يد قوى أخرى وهمية خفية.

ويؤسس الفاروقي لبناء صرح العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية، على هذا الخيط الفكري المهم. فالتوحيد الإسلامي هو شرط العلم المؤسس على سنن كونية تكوينية وتكليفية ثابتة، والكون في ظل هذا المبدأ له غاية، ويسبح بجناحين هما: الاعتماد المتبادل بين المخلوقات، والانسجام والتناغم الكامل بينها، لكونها مخلوقة بقدر، ومحكومة بسنن ومشيئة ربانية، ويعتريها الخلل فقط، حالة الانحراف عن أمر الله التكليفي بما

كسبت أيدي الناس. ومؤدى ذلك هو: وجود آصرة وُثْقَى بين العلم والأخلاق. فالطبيعة ليست نظاماً مادياً فحسب، بل هي ساحة لغايات، كلٌّ شيء فيها مخلوق بقدر، بحيث يغني غيره ويحقق توازنه. والوجود مؤسس في ظل هذا التصور على سلسلة من النظم الدقيقة المتوازنة، ومن الغايات الفرعية بين المخلوقات المترابطة، في مملكة، مالكها الوحيد هو بارئها، والإنسان فيها مجرد مؤتمن مأذون له بالانتفاع وفق منهجه سبحانه وتعالى، وهو مأمور بتجنب العقوق، وبتحري الإحسان في استعمال كل شيء سخّره الله له، فيما خلقه له.

وأساس انتظام الحياة هو ثلاثية: الاعتماد المتبادل بين المخلوقات، والانسجام الكامل بينها، والفعل الأخلاقي الإنساني المنتظم بالمنهج الرباني، في الانتفاع بمسخرات مملوكة في الحقيقة لله تعالى، والتنقيب المتواصل في السنن الكونية بوصفه فريضة على الإنسان لبناء العلم وتحصيل الانتفاع، والوعي بجمال النظام الكوني، وبوجود الواحد الأحد المبدع والمدبر لأمره.[٦]

سادساً: التوحيد مبدأ الأخلاق

الفعل الأخلاقي خاص بالجنس البشري كله في كل زمان ومكان، ومسرحه هو كل ما في السموات والأرض من مخلوقات. وتنفرد الرؤية الإسلامية للإنسان بوسطية تنتفي معها كل صور تأليهه، وكل صور تحقيره، وكل صور تلويثه ونبذه، وكل صور وزنه بغير عمله وسعيه. وفي ظل تلك الرؤية تنتفي القطيعة بين الدين والأخلاق، وتتأسس وحدة المعرفة وانفتاحها وهدفيتها، وتتبين الغاية من خلق الإنسان وبراءته الأصلية، وتقتصر المسؤولية الأخلاقية على الفعل الذي يقدم عليه الإنسان الراشد العاقل بنفسه بوعي وإرادة حرة، وفي حدود استطاعته، ويحدث به تحولاً في مجريات الزمان والمكان، وتتزلزل أساطير التمييز كافة بين بني الإنسان التي ادّعاها الإغريق، واليهود، والمسيحيون الأوربيون

[٦] انظر في التفصيلات:
- الفاروقي، **التوحيد: مضامينه في الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص١٠٢-١٢٠.
- الفاروقي، **أسلمة المعرفة: المبادئ العامة وخطة العمل**، مرجع سابق، ص١٠-٢٥.

الذين نسجوا على منوالهم من بعدهم. ولباب إنسانية الإنسان في ظل هذه الرؤية هو طاعة الأمر التكليفي بفعل أخلاقي يمثل أساس وظيفته الكونية.

ومفهوم الإنسان في ظل هذا المبدأ مختلف بالكلية عنه في منظورات أخرى، فالمنظور الإغريقي ألّه كل ما هو إنساني بما في ذلك النقائص والرذائل، والمنظور المسيحي زعم انحطاط الإنسان من فطرة تجعله على صورة ربانية، إلى وضعية أسير لخطيئة أزلية أبدية لا فكاك له منها بفعله وسعيه. وانحدر المنظور الهندوسي به إلى درك طوائف اجتماعية متوارثة، تحدد قدره بمولده، وليس بسعيه، وتدمغ السواد الأعظم من البشر بصفة المنبوذ أو الملوث، وبهذا انتكس المنظور البوذي برسالته في الحياة إلى درك السعي للتخلص منها.

وحدها الرؤية التوحيدية هي التي لا موضع معها لتأليه الإنسان ولا لتحقيره، ولا للقطيعة بين الدين والأخلاق، ولا للثنائيات الوهمية المتقاطبة؛ فالكون متناغم، وكل مخلوق يسبح على طريقته التي فطره الله عليها، والمعية الإلهية دائمة بعونها ورقابتها ومنهجها مع الإنسان بتكويناته الفردية والجماعية كافة. ولحظة خلق الإنسان هي لحظة ميلاد الحرية التكليفية في هذا الكون.

ونواة الأمانة هي استعمال الإنسان لحريته على نحو مسؤول، بوصفه مخلوقا يولد على الفطرة البريئة من كل عيب، وهو ليس مسؤولاً عن فعل أمم خلت، بل عن فعله هو في حاضره ومستقبله، بالاستعانة بالوحي المنزَّل، وبالعقل، والحواس، والقابليات التي فطره الله مزودا بها، ولا وجود لخطيئة أصلية أبدية، ولا لتحميل أحد وزر فعل غيره. والإنسان في هذا التصور كائن محرر من الأغلال المعرفية كافة التي فرضتها الرؤى السابقة على الإسلام عليه، فلا محل لخطيئة أصلية أبدية يزعم القائلون بها، تغير طبيعة الإنسان بعدها.

ويسلط الفاروقي الضوء هنا على الآثار السلبية لأسطورة الخطيئة الأصلية، وينقد، بل ينقض، ما طرحه العقل الغربي من رؤى بشأنها، ثم يعود إلى بناء مفهوم الذات الإنسانية الفردية والجماعية المسؤولة عن فعلها الأخلاقي في حدود استطاعتها وطاقتها، وفي ظل ديناميات التوبة والمغفرة؛ فخطيئة آدم وحواء عادية غفرت بالتوبة، والإنسان لم يسقط أبداً، ولم تتغير طبيعته، ولم يحتج لمخلِّص، بل للسعي إلى الفلاح. والماضي مجرد عبرة. والأمر التكليفي ضابط للحاضر والمستقبل فحسب، ولبّ ذلك الأمر هو: وجوب

تفعيل الإنسانية بكل أنساقها، الدين في الحياة، بوسطية نافية للإفراط اليهودي في الحفاوة بالشكل على حساب مضمون الوحي المنزل وروحه، والإفراط المسيحي في التركيز على إصلاح الداخل الإنساني، دون أي اعتبار لوجوب ظهور أثر ذلك على السلوك الخارجي في شكل أعمال صالحة يتغير بها الواقع الخارجي.

ولا موضع في ظل الرؤية التوحيدية، للغنوصية والرهبانية، وللحطّ من شأن كل الموجودات، ومن الإنسان نفسه بدعوى تلبّسه بالهوى والخطيئة. وتربط تلك الرؤية بين صلاح أي عمل وصلاح النية من جهة، وصلاح النِّية وتجسدها في عمل صالح من جهة أخرى. فالنِّية الصالحة بمثابة تذكرة دخول ساحة العمل الصالح، والعمل الأخلاقي هو تذكرة بلوغ مرضاة الله تعالى والجنة. ومؤدى هذا الربط بين خلافة الأُمّة وكل من النّية الصالحة والعمل الصالح، نفي شرعية القعود والعزلة، حتى لو كانت الغاية منهما هي تنمية ما بالنفس من خصال حميدة.

ويقوم الربط بين الإيمان والعمل على هذا النحو على روح الأمة، ولبابها هو روح الشراكة النابذة لكل من: الإيثار بالعمل نيابة عن غيرهم، والشراكة الإكراهية، والمكرسة لروح أخلاقية العمل الإيثاري المشترك، بإقناع الآخر بالمشاركة في العمل الأخلاقي، الذي تتأسس عليه الكلمة السواء، والمجتمع الأمة القائم على إجماع النية والإرادة والعمل.

وخلاصة مفهوم "المجتمع- الأمة" الذي ينحته الفاروقي هنا، هو المساواة بين البشر، مساواة منظومة بعلاقة عهد مع الله تعالى، يرتبط في ظله الحق بالواجب، في خلافة تقوم على محاكاة جنة الله تعالى على الأرض بفعل أخلاقي إيجابي، في بيئة مهيئة له، في دار عمل وابتلاء، تليها دار حساب وجزاء عادلين ويقينيين.[٧]

سابعاً: التوحيد مبدأ النظام الاجتماعي

يبرهن الفاروقي في بنائه للبعد الاجتماعي على التوحيد، على أنَّ النظام الاجتماعي في الإسلام فريد، وفطري، وضروري، ومرتبط بمفهوم الأمة، والشأن الحياتي، والزمان

[٧] انظر في التفصيلات:
- الفاروقي، **التوحيد: مضامينه في الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص١٢١-١٥٩.

والمكان وبعملية صنع التاريخ. ويبرز تعلّق جلّ أحكام الشريعة به من جهة، وتضمينه في الشعائر والأخلاقيات الفردية من جهة أخرى.

فهذا النظام مغاير لرؤى الأديان الهندية، التي تؤسس التفاعل بين الإنسان والحياة على أنها بمنزلة الضرورة الملجئة التي يسعى للتحرر من قيودها وسلبياتها. وهو مغاير للرؤية اليهودية، التي تحصر الفعل الأخلاقي في اليهود دون سواهم، على أساس قَبَلي ومزاعم عنصرية. وهو مغاير للمسيحية التي صوّرت رسالة المسيحية على أنها موجهة إلى داخل الإنسان بغنوصية تنبذ المادة على نحو مبالغ فيه، ولا تقيم وزناً للنظام الاجتماعي مهما كان صلاحه في عملية الخلاص التي تروج لها. وهو مغاير للرؤية العلمانية الحديثة القائمة على القطيعة بين الدين والشأن العام.

ولا تقرّ النظرية الاجتماعية الإسلامية أربع ركائز روّجتها الرؤى الدينية الأخرى، وكذا الرؤى العلمانية، أولى هذه الركائز: اعتبار الخلاص والفلاح شأناً فردياً، وثانيها: النزعة اليهودية القَبَلية المنغلقة الموغلة في المادية، وثالثها: الغنوصية المسيحية الموغلة في إدانة الشأن الدنيوي عامة والشأن السياسي بوجه خاص، على نحو ينتفي معه أي دور لذلك النظام في الخلاص المتصور، وتغيب معه من ثمّ الحاجة إلى نظرية اجتماعية من الأساس، ورابعها: الفصل العلماني بين النظام الاجتماعي والقيم الأخلاقية، بوصفه مستحيلاً من جهة، وضاراً بالعمران حتى على فرض إمكانيته من جهة أخرى.

وبعد عملية التفكيك والتخلية هذه ينتقل الفاروقي إلى مرقاة بناء النظرية الاجتماعية الإسلامية؛ إذ يجلي العلاقة الوثيقة بين التوحيد والمجتمعية، ويرسم قسمات ومعالم مؤسسة كونية؛ لتحقيق إرادة الله تعالى في شقها الأخلاقي في أرض الواقع، على يد أمة حرة مسؤولة، أخرجت للناس، مكونة من مؤتمنين أحرار، الحاكمية في ظل عمرانها للشريعة. ومبادئ تلك الشريعة على مستويين: مبادئ معيارية لا زمانية ولا مكانية عامة ثابتة، ومبادئ إرشادية توجيهية عامة قابلة للتكيف مع معطيات الزمان والمكان. وتشمل المضامين النظرية لتلك لرؤية الاجتماعية الإسلامية: الطابع العام للحياة الإسلامية (أخلاقية النية وارتباطها بالضمير، واقتصار أي مدد لها من الخارج على النصيحة، واتساع

أخلاقية العمل للمراقبة وللقياس الخارجي وللضبط بالقانون)، والحاجة إلى نسيج اجتماعي يجسد الإسلام. فالمجتمع شرط للفلاح الأخلاقي، لا يتجسد الفعل الأخلاقي الإنساني إلا به، والمردود القيمي للسعي الجمعي يختلف عن نظيره المتعلق بالسعي الفردي. كما يختلف الأساس القيمي لما ينبغي أن يكون عن الأساس القيمي لما يمكن أن يكون، والقيم متعدية الأثر، ومن ثم تأتي أهمية الانفتاح عليها، وجدوى التلاقح بين الرؤية والتحقق.

أما من حيث الاعتبارات العملية للرؤية الاجتماعية الإسلامية، فيبين الفاروقي أنَّ تحقيق الإرادة الإلهية مجتمعي بالضرورة، شريطة قيام المجتمع على مبادئ ثلاثة: مبدأ العالمية النابذة لكل النواظم التخصيصية بين البشر، ومبدأ استيعاب القيمة للخير كله حيثما وجد بما يحقق التناغم الكامل بين المجتمع والدولة، ومبدأ المسؤولية الكفيل بمنع تحول الكُلية المجتمعية إلى شمولية. وينتهي هذا الخيط الفكري برصد المضامين العملية لنظام اجتماعي مؤسس على المرتكزات النظرية سالفة الذكر، التي تتمثل بمجتمع الخاصية الأم له، وهي: نبذ كل النواظم الحصرية بوصفها معايير للقيمة. فالمجتمع الإسلامي عالمي التوجه، يرفض تأسيس منظومة الحقوق والواجبات على أية نواظم تخصيصية حصرية، وهو مجتمع منفتح بالضرورة، يسعى للتوسع؛ ليشمل تحت مظلته الجنس البشري كله، وهو وفق هذه النظرية الاجتماعية الفريدة مدرسة تربوية كونية.

ويقدم الفاروقي هنا عملية تفكيك معرفية لمفهومي القبيلة والقومية، تجلي الطابع الحصري لهما، وحدود التسامح الإسلامي مع الولاءات الفرعية تحت مظلة البعد الإسلامي الإنساني الجامع، ويقارن بين التناغم الممكن تحقيقه بتعلية البعد الإسلامي بين أدوار الأنساق والولاءات التحتية المتحاضنة للأمة، بما فيها المجتمع والدولة، والنزعة الغربية التفريقية المؤسسة للولاءات المتنابذة، وللمفاصلة بين دوري الدولة والمجتمع، والمحبذة لما يسمى بحكومات الحد الأدنى.[٨]

[٨] المرجع السابق، ص١٦٠-١٨٤. انظر أيضا:
- الفاروقي، إسماعيل، الفاروقي، لويس، **أطلس الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٩٨-١٠٠.

ثامناً: التوحيد مبدأ الأمة

عضوية الجماعة طبيعية وحتمية، بعكس عضوية المجتمع، ولا يلزم أن يتطابق الكيان السياسي مع المجتمع. ومفهوم القوم والشعب أضيق بالضرورة من مفهوم المجتمع، والأمة مجتمع قابل لن يضم كل الأعراق، والشعوب، والأقوام تحت هوية السلام الإسلامي الجامعة. ومن أهم خصائص هذه الأمة: عدم التمركز حول العرق، والاتصاف بالعالمية الجامعة، والكلية والشمول، والحرية، والدينامية، والوسطية العضوية، والرسالة الملموسة، والقابلية للتجسد، بل ضرورة تجسيدها ومأسستها. وتتمثل ديناميات مثل هذه الأمة في أنه: لا إسلام دونها، فلا أخلاقية إلا عبر المعاملات. وهي أمة واحدة لا تتعدد، وأساس واحديتها أخلاقي ديني بوصفها رابطة حرة بين أفراد بهدف تجسيد القيم المحققة للفلاح في الدارين، والحقيقة العليا واحدة، ولابأس من تعدد الرؤى بخصوصها شريطة أن تكون مسؤولة.

ومفهوم الأمة هو وعاء النظام الاجتماعي الإسلامي الجامع، ونزعة الأمة هي الأصل. أما النزعة القومية فهي مجرد ظاهرة عابرة حديثة عهد بالوجود، ودَرْسُ الخبرة التاريخية يقول: إنَّ روح الأمة تلد تمكيناً دنيوياً حتى لو قامت على أساس غير أخلاقي، كما هو شأن النموذج الصهيوني المعاصر، وإن كان ذلك التمكين يكون مؤقتاً واستدراجياً، ووحده التوحيد الإسلامي هو الذي يمكن أن يفرخ تمكيناً قابلاً للبقاء. وغاية هذا المبدأ ليست إقامة الأمة العالمية، فخبرة التاريخ تبرهن على أنَّ البشرية عرفت في الماضي، والحاضر مساعي من ذلك النوع، أخفق بعضها، وحالف التوفيق بعضها الآخر. فما يسعى إليه الإسلام هو بناء أمة كونية من نوعية خاصة، من أهم سماتها كونها: غير متمركزة حول العرق، ولا محصورة بمجال ولا بمكان ولا زمان، ولا هي بمخرجة نفسها، بل هي أمة أخرجت للناس، حرة كلية عالمية، مكلفة بالسعي إلى الخيرية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، رسالتها إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

ومن طرف هذا الخيط يجلي الفاروقي –رحمه الله– ديناميات هذه الأمة الفريدة من نوعها، مبيناً مسوّغ وجودها، المتمثل في أنَّه: لا إسلام دون الأمة الواحدة الجامعة، التي ترسي الأخلاقية بحياة الشراكة والترابط الطوعي مع الكون، وتنبذ أخلاقية العزلة. وتبني علاقة الإنسان بكل ما في الكون على أساس أخلاقي حر، لا إكراه فيه. وتجمع بين الاجتهاد في معرفة إرادة الله في بعدها الأخلاقي، وفي تحقيق الإجماع على ما يتوصل إليه العقل الإنساني بخصوص سبل الارتقاء بالواقع المعاش، قدر الاستطاعة الإنسانية إلى المستوى المطلوب بالوحي والفطرة السوية، وإعمال العقل والحواس في تدبُّر السنن الإلهية الكونية، والانتفاع بالطيبات، وتجنب الخبائث، مع التوسيع المتواصل لدائرة استكشافها، والالتزام بمعاييرها، وتفعيلها.

ومفهوم الأمة المشار إليه قابل لتقسيم فضائه المكاني إلى وحدات سياسية، وإدارية بحسب متطلبات الواقع، بشرط نبذ الثنائيات المختلقة، والفواصل المفتعلة. فهذه الأمة دينامية بطبعها، وهي بمثابة الجسد الواحد، والبنيان الواحد. وإذا كان الإسلام قد وضع البشرية أمام كثير من الحجرات المغلقة، فإنه أمدها بمفاتيحها. وتقع مسؤولية عدم استخدام تلك المفاتيح، وعدم الدخول من ثمّ إلى تلك الغرف، واستكشاف ما بها من خيرات والانتفاع بها، على كاهل البشر.

وينتهي سياق هذا الخيط الفكري إلى واحدة من أهم النقاط التي تجاوز فيها الفاروقي التنظير لمركزية التوحيد في كل مجالات الفكر والحياة، إلى تقديم تصور عملي لخطوات تأسيسية، لاستعادة بنية الأمة. وجمع –رحمه الله– هنا بين أمرين: صياغة تصوُّر لمؤسسات الأمة الأولية يقوم على: المسلم العامل، والعروات الوثقى، والأسر، والزوايا، والجمعيات، وربط إنشاء مؤسسات فوقية أسمى منها، بما يكشف الواقع الإسلامي نفسه عن حاجته إليه. ونبَّهنا إلى عدم إنشاء مؤسسات في فراغ، ولا بمجرد التصور الذهني.[٩]

[٩] انظر في التفصيلات:
– الفاروقي، **التوحيد: مضامينه في الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص١٨٥–٢٢٠.

تاسعاً: التوحيد هو مبدأ المؤسسات الاجتماعية المجعولة

يميز الفاروقي في هذا المقام بين المؤسسات الاجتماعية الأولية وفي مقدمتها الأسرة والبنى النابعة منها، والمؤسسات الثانوية المحاكية لها التي هي من صنع الإنسان. ويردُّ ما أصاب مؤسسة الأسرة من وهن خلال القرون الأخيرة إلى: التزييف الشيوعي لمفهوم المساواة، وتآكل الرابطة الأسرية في العالم الغربي، ودور علماء ما يسمى بعلم أصل الإنسان في إسقاط معطيات دراساتهم على عالم الحيوان على عالم الإنسان.

ويؤكد الفاروقي عبر عملية تفكيك معرفية أنَّ ثمة اختلاف نوعي بين مؤسستي الأمة والأسرة، والأنساق المجتمعية الثانوية الطارئة مثل القومية والعرقية والطبقية. ويجلي تهافت الأطروحات المتمحورة حول التصور العلماني للمساواة، ويرصد سوءات الأسرة النواة التي روَّج لها ذلك التصور، في مقابل حسنات ومزايا العائلة الممتدة التي يدعو الإسلام إليها. وينتهي إلى إثبات أنَّ المساواة بين المرأة والرجل هي الأصل، ولكنها محكومة بالتمايز والتكامل بين دوريهما؛ فالإسلام ضد سفور المرأة، وضد انعزالها أو عزلها عن العمل المجتمعي، ومع مفهوم المرأة المسلمة العاملة وصاحبة المهنة.[١٠]

عاشراً: التوحيد مبدأ النظام السياسي

النظام السياسي الإسلامي مرادف لمفهوم الخلافة، وهو نظام أمة حرة ناظمها الوحيد هو الإسلام، اختارت أن تقيم شبكة علاقاتها على شرع الله تعالى، أو بالأحرى على ما لا يخالفه، وظيفتها هي إعادة تشكيل العالم بإجماع ثلاثي للرؤية، والإرادة، والعمل. ويدخل التحويل الفعلي للأرض والبشر باتجاه الإرادة الإلهية بفعل أخلاقي في صميم مفهوم العبادة.

ويستعرض الفاروقي بعد هذه المقدمات ما يسميه: الحقائق المحزنة لواقع القوة السياسة للعالم الإسلامي، مبيناً أنَّ بؤرة انحطاطنا تكمن في مجالي: التربية والتعليم، والتدريب، فضلاً عن غياب القيادة الملهمة، ثم يتحسس وعد القوة السياسية لأمتنا،

[١٠] المرجع السابق، ص٢٢٢-٢٤٠.

والطريق إلى إعادة بنائها من الداخل، باستيعاب درس الخبرة التاريخية، وهو: ارتباط سلامة النظام السياسي، ونضجه بمدى تمثله لقيم التوحيد، وتحويلها من مبادئ إلى واقع معاش. فأي نظام سياسي يقوم على أساس من اثنين: عصبية باحثة عن الفوارق ومصطنعة لها، أو عصبية إسلامية باحثة عن الجامع ومعضدة له، عبر عملية اجتهاد متواصلة، ترسي إجماعاً يخضع لعملية اختبار متواصل تكفل تجديده، وتصويبه، وتناغمه. والحد الأدنى لذلك الإجماع الاجتهادي هو الارتقاء في السعي الإنساني الآخذ بالأسباب لتحقيق الكفاية للبشرية جمعاء. أما حده الأعلى فلا سقف له.

ثم ينتقل من ذلك إلى بيان آفاق عودة القوة السياسية لأُمّتنا فيما لو عادت عودة حميدة إلى رحاب توحيدها الخالص. ولمّا كان فاقد الشئ لا يعطيه، فإنَّ عطاء هذه الأمة للبشرية، لا بدّ أن يبدأ ببناء الخلافة بالداخل الإسلامي على يد صفوة رشيدة محتسبة.

ويستعرض الفاروقي هنا جناية الغرب المعاصر بتوجهيه الشيوعي والرأسمالي على مؤسسة الأسرة، وما جرته من وهن على المجتمع. ثم يجلِّي مركزية مؤسسة الأسرة مبيناً كونها نواة للأمة العالمية الجامعة، وارتباط جانب كبير من شبكة العلاقات ومنظومة العمل الصالح الأخلاقي بها، في مقابل هامشية مؤسسات مجتمعية أخرى مثل القوم والقبيلة والعِرق. ويصل إلى حد القول بأنه لا توحيد دون الأسرة، ثم يفكك مشكلات معاصرة متعلقة بالأسرة، في مقدمتها: المساواة بين المرأة والرجل، ويقررها على المستويين الديني والأخلاقي، وعلى مستوى الحقوق والواجبات المدنية، ولكنه ينفيها على مستوى الدور بتمركز دور المرأة داخل البيت، ودور الرجل في السعي خارجه.

فدور المرأة ودور الرجل متمايزان، ولكنهما متكاملان لا قيام لأحدهما إلا بالآخر. ويأبى الإسلام سفور المرأة وعزلتها، ويضع ضوابط لانفتاحها على المجتمع ومشاركتها في الشأن العام، ثم يحلل مسألة الزواج والطلاق، ويقارن بين مزايا الأسرة الممتدة ومثالب الأسرة النووية، ويختم ببيان لكيفية جمع المرأة بين مهنة الأمومة وتأهيلها لها، وتعلمها حرفة.[١١]

[١١] المرجع السابق، ص٢٤١-٢٦٠.

حادي عشر: التوحيد مبدأ النظام الاقتصادي

يستهل الفاروقي بناءه للنظام الاقتصادي الإسلامي بقراءة نقدية للمنظور الاقتصادي المسيحي، والإسهام المعرفي الإسلامي في إنقاذ العالم من مثالب كل من التدين الإغريقي والهندي في حقل الاقتصاد. ثم يستعرض السمات الدنيوية للمنظور التوحيدي، ويجلي حقيقة أخلاقية الفعل الإنساني، وعدم وجود شيء مادي شرير بذاته، ويربط ذلك الفعل بالإيمان باليوم الآخر، وبعالمية الاقتصاد الإسلامي وانفتاحه، وبأخلاقيات الإنتاج والتجارة والتوزيع، وصيانة البيئة، وطهارة الإنتاج والبيع والشراء، وأخلاقيات الاستهلاك، بقراءة نقدية مقارنة، تقيم الدليل على أنَّ هامَةَ البديل الإسلامي في العدالة الاجتماعية وإعادة الاعتبار لإنسانية الإنسان تتقازمُ أمامها أسمى المثاليات الغربية المعاصرة.

فالإسلام يتبوأ موضع الصدارة بين الأديان والعقائد كافة، في حفاوته بالبعدين السياسي والاقتصادي بوسطية جامعة، وبموازنة بين الروحي والمادي، وفي دعوته للاستمتاع بالطيبات وفق ضوابط الشرع. والحياة الدنيا –في ظل هذا المنظور الإسلامي– ساحة للفعل الأخلاقي للإنسان بصفته كائناً أخلاقياً حراً مسؤولاً، ضمن نظام اقتصاد عالمي ملتزم بالحرية والانفتاح، وبأخلاقيات للإنتاج والاستهلاك والتجارة، ورفض الحواجز.

وتشمل المبادئ الأخلاقية للإنتاج: الاستخدام المسؤول للموارد في العملية الإنتاجية، وطهارة الإنتاج من الخبائث الحسية والمعنوية، وتحري الربح العادل والأجر العادل، ومراعاة أخلاقيات الإنتاج. وعدالة الربح والأجر أمران موقفيان، وتربية الضمير الإنساني، والقانون يتكاملان في رعاية الالتزام بضوابط الإنتاج، والاستهلاك والتجارة.[١٢]

ثاني عشر: التوحيد مبدأ النظام العالمي

يجلي الفاروقي أبعاد هذا المبدأ بإضاءة معرفية على أربعة محاور: المحور الأول هو الأخوّة العالمية كما تجسدت في عهد المدينة المنورة، وكما استلهمها السلف الصالح في

[١٢] المرجع السابق، ص٢٦١–٣٠٦.

تعاملهم مع كل أمّة ذات دين مهما كان موقف الإسلام منه، والمحور الاثني هو نظام السلام الإسلامي الجامع، والمحور الثالث هو قانون الأمم الإسلامى، والمحور الأخير هو مؤشرات سمو النظام القانوني الدولي الإسلامي. ويختتم الفاروقي بيان هذا الرافد التوحيدي المعرفي، بإطلالة على تجاوز السلام الإسلامي لمنح غير المسلمين العدل، إلى مصاف منحهم الإحسان بمضامينه المعرفية فيما يتعلق بصيانة حرية العقيدة عن أي شُبهة إكراه في الدين.

ويؤسس الفاروقي تنظيره للتوحيد بوصفه نواة النظام العالمي على قراءة نقدية مقارنة للعبث بمفهوم الإنسان، ومن ثم لوظيفته ومرجعيته، في مقابل الارتقاء به حالة اتخاذ التوحيد ناظماً وحيداً لتعريفه ولتحديد وظيفته ومرجعيته، واتخاذ كل أهل دين من دينهم مرتكزا لتنافسهم في الخيرات.[١٣]

ثالث عشر: التوحيد مبدأ الجمال

يختتم الفاروقي أطروحته الفريدة هذه ببيان أنَّ التوحيد هو مبدأ الجمال، ويفنِّد أوهاماً بنيت على أحقاد غربية، وعلى معايرة الفن الإسلامي بمعايير من خارجه، ويجلِّي وحدة الفن الإسلامي وفتوحاته المعرفية، وما يواجهه من تحديات، ويرسم معالم الطريق لقراءة صحيحة له.

ويكشف النقاب عن تفرد الفن الإسلامي بشتى صوره بخاصية إثبات الطابع المفارق للذات الإلهية عن كل ما هو طبيعى. وبجملة واحدة، يبرز تألق الفن الإسلامي بشتى صوره بكونه متبتلاً على الدوام في محراب التوحيد، نافياً صفة الإطلاق عن أي شيء في الوجود، باستثناء الذات الإلهية؛ فالفن الإسلامي يضع الإنسان دائماً في معية الله تعالى، مثبتاً له الوحدانية، نافياً الألوهية عن كل ما عداه. وفي المقابل، تنحصر فنون الأمم غير الإسلامية في دائرة الافتتان بمعية الإنسان أو الطبيعة.

---

[١٣] انظر في التفصيلات:

- المرجع السابق، ص٣٠٧-٣٢٠. وحول مرتكزات النظام العالمي والخلافة والدولة، انظر:
- الفاروقي، إسماعيل، الفاروقي، لويس، **أطلس الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٢٣٧-٢٤٢.

ويختتم الفاروقي طرحه ببيان الفتوحات المعرفية التوحيدية التي حققها الفنان المسلم. ويستعرض طبيعة اللغة العربية والشعر العربي والقرآن الكريم، وما بتلك اللغة من إمكانيات فريدة وغنية اكتشفها الفنان المسلم، ووظّفها في التعبير عن النهائي المطلق. ويسلط الضوء على المضامين والدلالات الجمالية للأرابيسك بالقياس بالموزايك الفسيفسائي، وعلى الرابطة الوثقى بين اللغة العربية وخميرة العروبة وفنون الخط العربي، والإسلام.[١٤]

خاتمة

أكّد الفاروقي على المركزية المطلقة للسنة الإلهية المتمثلة في أنَّ التغيير لا يأتي من الخارج، بل مما بالنفس. والمدخل الرئيس لذلك هو استعادة العافية لنظام التربية والتعليم في عالمنا الإسلامي. وقد ألّف الفاروقي كتاب "التوحيد ومضامينه في الفكر الحياة" ليكون كتاباً منهجياً في برامج تعليم العقيدة الإسلامية، إسهاماً منه في بدء عملية الإصلاح التربوي والتعليمي. وهو بذلك قد وضع حجر الأساس للجهود المطلوبة لإنجاز هذا الإصلاح. وهو بذلك –كذلك– لم يكتف بالنقد المعرفي الذي قدمه لمحاولات إصلاح التعليم الإسلامي، بما فيها المحاولة التي شهدها الأزهر في العهد الناصري، مبرهنا على عوارها، لغفلتها عن حقيقة أنَّ وراء كل العلوم، غربية النشأة، مضموناً ومناهج بحث يجرَّان معهما رؤية كاملة للحياة، ونظاماً قيمياً دخيلاً يحتم عقمها. ودعا ترتيباً على ذلك إلى البراءة من محاولات الإصلاح السطحية تلك، والسعي إلى صبغ العلوم بصبغة إسلامية، بإعادة صياغة كل علم بالتوحيد بأبعاده الثلاثة: وحدة المعرفة، ووحدة الحياة، ووحدة التاريخ، وعلى نحو مخطط. ونبهنا الفاروقي إلى أنَّ البحث عن المعرفة لا بدّ أ ن تكون له روح. وهذه الروح لا تستعار.

ويحسن أن نؤكد أنَّ تحليل الفاروقي يمثل الحد الأدنى والضرورى، للإقلاع الحضاري المنشود، ولاستعادة أسباب التمكين والعزة، وقبلة هذه الوصفة هي التوحيد الخالص

[١٤] انظر في تفصيلات ذلك: المرجع السابق، ص٣٢١-٣٦٠. وحول طرح مفصل وموثق للفتوحات الإسلامية التوحيدية في مجالات الفنون، انظر:

– الفاروقي، إسماعيل، الفاروقي، لويس، **أطلس الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٤٧٩-٥٧٣.

بمضامينه كافة التحريرية المصدق عليها والمهيمن عليها بالقرآن الكريم، من أمة عابدة مكرمة مكلفة، في كونٍ، كل ما فيه يسبح بحمد الله، بمنهاجية معرفية قرآنية ضابطة لتفاعلها مع الشهادة، ومع الغيب في دوائر تحقيق العقيدة، وتحقيق العمل الصالح، وتحديد الحلال والحرام، والصواب والخطأ، والحسن والقبيح.

وهذه العملية مستديمة بطبيعتها، ولا سقف لمعراجها في إخراج البشرية من وضعية العوز، ومن وضعية الارتقاء المادي المصحوب بالانحطاط القيمي إلى مصاف العمران والتزكية المتناغمة مع الآيات الربانية في الآفاق وفي الأنفس.

لقد سبق لأمتنا أن مكنت أوربا بترجمة التراث المعرفي اليوناني من استعادة بعثها الحضاري. والسؤال: ألم يحن الوقت لأن نستعيد نحن بعثنا الحضاري بالعودة إلى تراثنا عبر المفاتيح التوحيدية التي قدمها لنا علامتنا الفاروقي؟!